

لغة البيان النبوي بين النشأة القرشية والتأديب الرباني

The language of the prophetic rhetoric between Quraysh upbringing and divine discipline

دليلة مصمودي^{*1}

1 جامعة الوادي ، (الجزائر) ، mesmoudi-dalila@univ-eloued.dz

تاريخ النشر: 2022/12/31

تاريخ المراجعة: 2022/12/24

تاريخ الإيداع: 2022/12/04

ملخص:

يتحدث المقال عن لغة البيان النبوي وما شهدته تلك اللغة من طفرة تحويلية جسّدتها نقلة نوعية من النشأة القرشية - اللغة النموذجية - إلى التأديب الرباني ، وهي نقلة عاشتها الذات النبوية في تكوينها اللغوي ، إذ سيحاول المقال البحث في مجموع الإشكالات الخاصة بلغة البيان النبوي ، والمتمثلة في: حقيقة لغة قريش وهل هي اللغة النموذجية؟ ، لغة القرآن وإعجازها البياني؟ ، الطفرة المعجزة في لغة الرسول ﷺ ، إذ كيف لأبي لا يحسن القراءة ولا الكتابة أن يصبح معلما للبيان في اللغة والأدب محققا ثلاثية: الخلوص ، القصد ، والاستيفاء؟. و هو ما سيتم تناوله تباعا في هذا البحث وفق المنهج الوصفي ، لتتوصل في الأخير إلى حقيقة مفادها أن للتأديب الرباني الأثر البالغ في السمو بالبيان النبوي إلى مراتب الإعجاز البلاغي ، وهو مكمّن أهمية هذا البحث.

الكلمات المفتاحية: لغة قريش ، لغة القرآن الكريم ، لغة البيان النبوي ، التأديب الرباني .

Abstract :

The article speaks of the prophetic rhetoric language where its language marks a rebound or a quantum leap embodied by a mutation of the Quraysh upbringing -the language-type- to the divine discipline. The prophetic self experienced this mutation during its linguistic formation. This article will deal with the background of this language mutation through the speech of the prophet by discussing the reality of the Quraysh language and to what extent is it the standard language? The quranic language and its rhetorical inimitability... as well as the miraculous mutation of the prophetic language and how a skilled illiterate prophet becomes a master of letters, eloquence and language realizing the rhetorical triangle in his speech: Intention, Brevity and Interpolation, which will be undertaken in this research according to a descriptive method, finally, to the truth which returns to the divine discipline the sublimation of the prophetic discourse and its rhetorical inimitability, and this is the objective of our study.

Key words: The language of Quraysh, the language of the Holy Qur'an, the language of the Prophet's rhetoric, divine discipline.

*المؤلف المراسل.

تقديم:

نزل القرآن واللغة العربية في أوج مجدها وقمة ازدهارها ، بحيث وصلت في تلك الحقبة من الزمان إلى منتهى الكمال والنضوج ، حيث جاء الإسلام والجزيرة العربية تعج بالشعراء والخطباء وعلماء السير والأنساب ، وتقيم الأسواق للأدب والشعر رواية وتفاحرا به ، إذ يعلق أجزله على أستار الكعبة المشرفة ، وهي أعظم الأماكن المقدسة ، جاء الإسلام واللغة العربية لغة مثالية تفهمها كل قبيلة في الجزيرة العربية ، ولا يعسر مقصدها على سائر القبائل ، وقد طغت على تلك اللغة لهجة قريش التي كانت من أفصح اللهجات وأكثرها نقاوة وبيانا¹. لكن وبرغم فصاحتها وبلاغتها إلا أن القرآن الكريم قد أعجز قريشا في بيانه ، وكانت ذروة إعجازه أن يتحدث به ابن قريش ونبيها الذي لا يحسن القراءة ولا الكتابة بلغة بيانية لم تشهدا قريش ولا العرب قبلا. مفارقات سيتم تناولها في خضم هذه الدراسة.

أولا: لغة قريش بين المعيارية والنموذجية:

نشأت لغة قريش في مكة أم القرى وبلد الله الحرام لظروف دينية وسياسية واقتصادية ، إذ تمثلت الظروف الدينية في كون مكة –ومنذ عهد سحيقة قبل الإسلام- بيئة مقدسة يفد إليها العرب من كل فج ليحجوا إليها ، وهو ما سيؤدي لا محالة إلى اجتماع فريق كبير من العرب في هذه البقعة ، كما سيختلطون بأهلها. ولم تفد هذه القبائل إلى مكة للحج والعبادة فقط ، وإنما لتشهد كذلك تلك الأسواق والندوات الأدبية للخطباء والشعراء ، ولسماع عيون الشعر وجيد القول ، كما كان الحال مع سوق عكاظ المشهور ، ففي هذه الأسواق كان أهل مكة يختلطون بالوافدين ، فيسمعون منهم كما يسمع منهم هؤلاء².

ومما لاشك فيه فإن أسواقهم الكبيرة قد عملت على ترقية الذوق الفني والأدبي ، كون الشعراء كانوا يتبارون فيها ، كل يريد أن يحوز قصب السبق لدى سامعيه دون أقرانه ، ويظهر أنه كان لقريش في ذلك ، الحكم الذي لا يرد ، وهو ما نجده في الأغاني: (أن العرب كانت تعرض أشعارها على قريش فما قبلوه منها كان مقبولا ، وما ردوه منها كان مردودا)³، إذ بتضافر هذه العوامل أصبحت اللهجة القرشية من أقوى اللهجات أثرا في تكوين اللغة العربية الفصحى ، كما جعلتها هذه العوامل لغة مشتركة بين القبائل جميعا ، فقد نمت وازدهرت بتوالي وفود هذه القبائل إلى قريش ، وبدورها حملت هذه الوفود تلك اللغة المشتركة إلى مواطن قبائلها ، فانتشرت بين أنحاء الجزيرة العربية ولكنها لم تنتشر إلا بين الخاصة فقط من أبناء القبائل المختلفة ، وهم أولئك الشعراء والخطباء⁴. ذلك لأن قريشا كانت تتشدد ، في مقياس الفصاحة وهو جعلها كما سلف ذكره لغة التفنن في القول والإبانة في التعبير، وقد دل استصفاؤهم إياها على أنها اختارت من كلام العرب أيبينه ، وراعت أرقشه ، واعتمدت أصفاه فكانت بذلك مقاسا يحتذى به⁵.

مؤهلات جعلت القرشيين يحسون بتميز لغتهم ، كما أحس به غيرهم من العرب ، يقول ابن فارس: (حدثنا اسماعيل بن أبي عبيد الله قال :أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم ، أن قريشا أفصح العرب السنة وأصفاهم لغة ، وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب ، تخيروا من تلك اللغات فصاروا بذلك أفصح العرب)، وكان أبو حاتم السجستاني

يفضل لغة قريش على ما سواها، ويقيس الفصاحة في القبائل بنسبة قريش منها، إذ يقول: (وأحب الألفاظ واللغات إلينا أن نقرأ بها لغات قريش، ثم أدناهم من بطون مضر)⁶.

وهو ما يؤكد ابن خلدون في قوله: (إن اللغويين يحتجون بلغات القبائل بنسبة بعدها من قريش).⁷ إذ إن هذه اللغة كانت نتاج أفصح القبائل العربية هم مادة اللغة، وقد نص الرواة أن هذه القبائل: هي قيس وتميم وأسد، والعجز من هوزان يقال لهم عليا هوزان، وهم خمس قبائل أو أربع، سعد بن بكر وجشم بن بكر، ونصر بن معاوية وثقيف.⁸ لغة زادها القرآن قوة وثروة وبلاغة وتطورا، بينما بقيت هي عاجزة عن تحديه.

ثانيا: لغة القرأن الكريما المعجزة

جاء القرآن الكريم بلغة العرب من أهل الجزيرة التي يفهمها الجميع ولا يعسر فهمها على أحد، يقول تعالى في كتابه العزيز: (كِتَابٌ فَصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) فصلت/ 3، ومجيء القرآن على نسق مفصل من فصاحة البيان، وبلاغة التعبير، يدل دلالة قوية أنه كان يخاطب قوما وصلوا إلى درجة عالية في ميادين البلاغة وروعة التعبير.⁹

لقد نزل القرآن وهو ذو ظاهرة لغوية فريدة في تاريخ اللغات، إذا لم يحدث للغة العربية - وهي لغة التنزيل - تطور تدريجي فحسب، بل هو أشبه بالانفجار الثوري المباغت، فقد كانت الظاهرة القرآنية مباغته، وبهذا تكون اللغة العربية قد مرت بطفرة من المرحلة اللهجية الجاهلية إلى لغة منظمة فنيا، لكي تنقل الثقافة الجديدة والحضارة الوليدة. وقد اختار القرآن للتعبير صورة جديدة «الجملة» متمثلة في الآية، فالآية القرآنية ستقصي ناحية شعر البادية، وتتحرر من الوزن مع اتساع مجالها الموضوعي.¹⁰

ظاهرة لغوية أعجزت العرب عن تحد القرآن الكريم والإتيان بمثله ولو افتراء، قال تعالى: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) البقرة/ 23. تحد صارخ لقوم البيان. لقد تحداهم القرآن أن يفعلوا، وقال لهم: لن تفعلوا ولم يفعلوا، أليس في ذلك عجب؟ عجب لأن من عاداتهم المساجلة والمعارضة، فلم يساجلوا ولم يعارضوا، وعجب لأنهم فعلوا كل شيء من أجل القضاء على الدعوة الجديدة وسكتوا عن أبسط الأشياء وهو الكلام، وعجب أن وارث الكلام من شعرائهم وأئمة البيان عندهم أصبحوا مسلمين كحسان والخنساء وكعب والحطيئة ولبيد، وهم الأعلام باللغة والأبلغ فيها، ولبعضهم لسان أشد من السيف ومع ذلك كان موقفهم السكوت ثم التسليم.¹¹

إن القرآن يؤكد في الآية السابقة صراحة سمو أسلوبه ذو الإعجاز العبقري الأدبي في عصره، فهو يقذف في وجوه معاصريه بهذا التحدي المذهل¹². وهو ما شعر به العرب الأقحاح يوم تنزل القرآن، إذ شعروا أن هذا القرآن الذي يسمعونه لم يخرج من بشر، كانوا يحسون هذا في أعماقهم مؤمنهم وكافرهم. ولأدل على ذلك حادثة الوليد بن المغيرة المخزومي حين سمع قراءة الرسول للقرآن وتجلى رأيه في قوله: "فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، ولا برجزه، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، والله إن لقوله حلاوة وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وإنه لينحطم ماتحته، فلا

هو مجنون ولا بشاعر ، إنما أقرب القول بأنه ساحر ، وأنه سحر يفرق بين المرء وابنه والمرء وأخيه والمرء وزوجه والمرء وعشيرته".¹³ والدارس للنص القرآني بإمعان سيصل إلى نتيجة واحدة أن هذا النص لا يمكن أن يكون من عند بشر بل لابد أن يكون من الله¹⁴.

وإذا اتخذنا القرآن الكريم نموذجا للغة المشتركة ، وجدنا العرب تنظر إليه وإلى أسلوبه نظرة أسمى حتى من آثارهم الأدبية الأخرى ، ذلك لأنه تحداهم وأعجزهم ولم يستطيعوا أن يأتوا بمثله ، وإعجازه لا يدركه إلا من أتقن الشعر والخطابة والكتابة وجميع الأساليب اللغوية المعروفة .

يرى الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن " أنه يستحيل على الأعجمي أو العامي أن يدرك إعجاز القرآن ، لأنه لم تتح له من الثقافة اللغوية أي قدر ، بل يستحيل على متوسطي الناس أن يدركوا إعجاز القرآن ، كما يرى أن المتناهي في إدراك علم الشعر وحده أو الخطابة وحدها أو الكتابة كذلك لا يدرك إعجاز القرآن إدراكا تاما". فأسلوب القرآن الكريم يمثل قمة اللغة العربية المشتركة التي هي فوق مستوى العامة من العرب ، كما كان في بعض الأحيان فوق مستوى الخاصة¹⁵. ولقد أجمع الناس جميعا أن اللغة إذا وردت في القرآن فهي أفصح مما في غير القرآن ولا خلاف في ذلك كما قال ابن خلوويه¹⁶. وهو ما يقودنا للسؤال: بأي لغة نزل القرآن؟.

إن قضية حقيقة القرآن وبأي لغة نزل ، تضاربت الآراء فيها واختلفت ، وكان لكل رؤية حجتها فيما ذهبت إليه ، ومن بين من استفاض في الحديث عن هذه القضية نذكر الدكتور جواد علي في كتابه المفصل في - تاريخ العرب قبل الإسلام - في الجزء الثامن ، إذ تناول حقيقة لغة القرآن عند القدامى والمستشرقين والمحدثين مدعما آراء كل فريق بالحجج والأدلة. وبما أن الحديث في هذه القضية يطول ، سنركز إذا على أهم الآراء في هذه القضية. فمن بين هذه الآراء من ذهبت إلى تعدد لغات القبائل التي نزل بها القرآن ، وهذا ما نجده عند السيوطي حين يقول: " روى أبو عبيد عن طريق الكلبي عن ابن عباس قال : نزل القرآن على سبعة لغات منها خمس بلغة العجز من هوزان ، وهم الذين يقال لهم عليا هوزان ، وهم خمس قبائل أو أربع ، منها سعد بن بكر وجشم بن بكر ونصر بن معاوية"¹⁷. كما نجده عند الزرقاني وتفصيله للأحاديث النبوية الشريفة في حقيقة نزول القرآن على سبعة أحرف ، وهي أحاديث صحيحة من طرق مختلفة كثيرة ، حيث فسرت القراءة باللهجة أو باللغة. وذلك لأن النبي ﷺ بعث إلى جميع الخلق أحمرهم وأسودهم وعربهم وعجمهم¹⁸.

وقد كانت حجة من قال بأن القرآن لم ينزل بلغة قريش وحدها ، ظاهر ماجاء في القرآن أنه بلسان العرب جميعا: (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) سورة الزخرف/ 03 ، (وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) سورة النحل/ 103 ، (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) سورة يوسف/ 02 (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) سورة الشورى/ 07 ، (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا) سورة الرعد/ 37 ، إلى غير ذلك من الآيات التي نصت صريحا على أن لسان القرآن هو اللسان العربي ، ولا توجد أية واحدة ذكرت أنه نزل بلسان قريش ، كما وجد العلماء أن في القرآن لغات أخرى ليست من لغة قريش ، وأن فيه ألفاظا هي بلغة تميم¹⁹.

أراء صدها أراء جلييلة تقر بأن القرآن نزل بلغة قريش، فقد كان قدامى اللغويين إذا ذكرت اللغة الحجازية أتبعوها بعبارات الاستحسان نحو: "لغة التنزيل ولغة القرآن".....وكانت المفضلة لديهم ، فهذا المبرد يقر أن كل عربي لم تتغير لغته فصيح على مذهب قومه ، وإنما يقال بنو فلان أفصح من بني فلان أي أشبه لغة بلغة القرآن ولغة قريش ، فهو يضع بذلك معيارين للفصاحة أولهما سلامة اللغة من التغير ، وثانمها شبيها بلغة القرآن ولغة قريش. فهو بذلك يقرن بين لغة القرآن ولغة قريش.

ولابن خلوويه قول يبين فيه انهياره الشديد بلغة قريش إذ يقول: (إنما النحوي الذي ينقر عن كلام العرب ويحتج عنها ، وبين ما أودع الله تعالى هذه اللغة الشريفة هذا القبيل من الناس وهم قريش)²⁰. ويؤكد أبو قتيبة أنه من غير الجائز أن يكون في القرآن لغة تخالف لغة قريش لقوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ) سورة إبراهيم/04 ، وقد ذهب أبو علي الأهوازي مذهبا موافقا لمذهب ابن قتيبة في أن القرآن كله منزل بلغة قريش²¹. واستند مؤيدو أن القرآن نزل بلغة قريش إلى ما روي عن عمر رضي الله عنه أنه غضب على ابن مسعود إذ أقرأ الناس بلغته ، فكتب إليه : "سلام عليك أما بعد. فإن الله أنزل القرآن فجعله قرآنا عربيا مبينا ، وأنزله بلغة هذا الحي من قريش ، ولا تقرهم بلغة هذيل"²².

وقد كانت طائفة من الفقهاء ، ترى رأي اللغويين ، فتفضل لغة أهل الحجاز بطريقة غير مباشرة ، إذ تفضل قراءة نافع وأبي عمرو وأبي جعفر وشيبة بن نصاح لأنها تمثل لغة قريش. لقول ابن جني في قراءتي ونشرا ، ونشرا ، والتثقيب أفصح ، لأنه لغة الحجازيين.

و بين هاته وتلك نجد طائفة وقفت على ما روي عن عمر وعثمان رضي الله عنهما في نزول القرآن بلغة قريش ، ووقفت أيضا على ظواهر لغوية في القرآن لغير قريش ، فأرادت أن تخرج من هذا التناقض الظاهري ، فذهبت مذهبا توفيقيا ، لكن بعضها يخالف بعضنا في توفيقه .

فالواسطي كان رأيه قريبا من رأي ابن قتيبة و الأهوازي، حيث يرى أن في القرآن ثلاث كلمات ليست من لغة قريش وسائر بلغتها هي : (فَسَيُنْغِضُونَ) سورة الإسراء/51، (مُقِيَّتًا) سورة النساء/85، (فَشَرِّدْهُمْ) سورة الأنفال/57؛ وذلك لأن لفظ قريش سهل لين واضح ، وكلام باقي العرب وحشي غريب . أما الأزهري فيرجح نزوله بلغة قريش ، فإن لم يكن فأكثره كذلك ، ومثله الباقلاني ، إلا أن هذا الأخير وقف موقفا جدليا وقال: (إنه لم تقم حجة قاطعة على نزوله كله بلغة قريش)، أما ابن مالك فيقول: (أنزل القرآن بلغة الحجازيين إلا قليلا ، فإنه نزل بلغة التميميين).

وإذا عرجنا على مذهب أبي شامة التوفيقية فنجدهم مخالفا لمذهب هؤلاء ، ويبدو أنه أعمق نظرة إلى القضية ، لأنه نظر إليها من جهة تاريخية ، فالقرآن أنزل - حسب رأيه - أول مرة بلسان قريش ثم أذن للعرب أن يقرؤوه على لغاتهم تسهيلا ، فلما أريد جمعه على حرف واحد يجتمع عليه الناس ، كان جمعهم على لغة قريش لسان الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعلى ما أنزل عليه القرآن أولا وأولى ، فهذا معنى نزوله بلغة قريش ومعنى كتابته عليها²³.

وإلى جانب قضية حقيقة لغة القرآن، نجد حقيقة أخرى مفادها أن القرآن المنزل على العرب بلغتهم التي ينطقون بها وفي عهد نقائها وصفائها وفصاحتها، إلا أنه صعب على بعضهم معرفة معاني ألفاظه وصيغته، فقد روى بدر الدين الزركشي أن ابن عباس وهو ترجمان القرآن أحصى عددا من الكلمات ك(الرَّقِيمُ) لا يعرف معناها.²⁴ لهذا احتاج الناس إلى من يكشف لهم معاني ومدلولات ألفاظ القرآنوعباراته، وهذا ما دفع علماء اللغة فيما بعد إلى تصنيف كتب خاصة، يجمعون فيها ماسمي بغريب القرآن من المفردات ويفسرونها ويوضحون معانيها.²⁵

ومهما كثر الحديث واختلفت الآراء في لغة القرآن ولغة قريش، فإنها لا تخالف من قال أن لغة قريش أفصح اللغات، وهي أسعد بالقرآن من غيرها حتى وإن لم يكن قد نزل بها كله²⁶، إذ منعها من أن تضمحل وتتشعب إلى لغات.²⁷ وبين لغة قريش ولغة القرآن نجد ذاتا لغوية نشأت في الأولى وزادتها الثانية فصاحة وبلاغة ورفعة، وهو ما اقتصت به لغة بيان محمد ﷺ.

ثالثا: لغة النبي وقضية التأديب الرباني.

إن الحديث عن لغة البيان النبوي تقتضي البحث في تكوينات هذه الذات اللغوية بين نشأة قرشية وطفرة تحولية معجزة، ومأل بياني جسده كينونة فصيحة وبليغة، لم تشهدا البشرية ولن تشهدا، كون التأديب الرباني حاضر فاعل فيها. وهو ما تناوله العناصر التالية:

1 نشأته اللغوية القرشية:

نشأ الرسول ﷺ وتقلب في أفصح القبائل وأخلصها منطقا وأعذبها بيانا، فكان مولده من بني زهرة ورضاعه في سعد بن بكر، ومنشؤه في قريش ومتزوجه من بني أسد، ومهاجرته إلى بني عمرو، وهم الأوس والخزرج من الأنصار، لم يخرج عن هؤلاء في النشأة واللغة، ولقد كان في قريش وبني سعد وحدهم ما يقوم العرب جملة، ولذا قال ﷺ: (أنا أفصح العرب بيد أني من قريش، ونشأت في بني سعد بن بكر)، وفي رواية أخرى (أنا أعريكم، أنا قريشي، واسترضعت في بني سعد بن بكر).²⁸ وبنو سعد من العرب الضاربة حول مكة، حيث كان أطفال القرشيين يتبدون فيهم وفي غيرهم يطلبون بذلك نشأة الفصاحة... إذ يجمع الرواة على أن بني سعد بن بكر حضوا من بين العرب بالفصاحة وحسن البيان.²⁹ فقد حظي النبي بنشأة لغوية متميزة ممهدة لتقبل الإعجاز اللغوي الرباني.

2 الطفرة المعجزة في لغة الرسول ﷺ:

ليس في العرب قاطبة من جمع الله له صفات وأعطاه خالصها، وخصه بجملتها وأسلس له مأخذها، وأخلص له أسبابها كالنبي ﷺ، فهو أصطنعه لوحيه، ونصبه لبيانه وخصه بكتابه، واصطفاه لرسالته.³⁰ ففي عزلته في غار حراء، حتى إذا نام أحس بحركة في لا شعوره توقظه، إنه يشعر بحضور، وهو يلمح أمام عينيه الآن رجلا متشحا بلباسه الأبيض، إن المجهول يقترب منه ثم يخاطبه قائلا:

- اقرأ.
- ما أنا بقارئ، قالها وهو يحاول الابتعاد عنه، والهرب من ذلك الذي يأخذه فيغطه حتى يبلغ منه الجهد ثم يرسله قائلاً:
- اقرأ.
- فيجيب محمد مرة أخرى: ما أنا بقارئ، فيكرر مرة ثالثة.

ذلك الشكل الروحاني الذي سيكون منذ الآن الزائر الملازم للنبي، اقرأ..... (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) سورة العلق 5/1.

من هذه اللحظة أصبح لدى النبي الأمي شعور بأن كتابا قد طبع على قلبه ، ولكن لم يكن له أن يتصفح كما يشاء ولا أن يطلع عليه كما يهوى ، إذ إنه سيوحى إليه كلما دعت حاجة الرسالة.³¹

انقياد تفسره نشأة الرسول ﷺ في بيئة لا تعرف القراءة ولا الخط والكتابة. اللهم إلا نزر قليل لا يصاغ منهم حكم على المجموع ، إذ ترجع هذه الأمية السائدة فيهم إلى غلبة البداوة عليهم وبعدهم عن أسباب المدنية والحضارة ، وعدم اتصالهم اتصالاً علمياً وثيقاً بالأميين المتحضرتين في ذلك الحين ، أمة الفرس في الشرق ، وأمة الروم في الغرب، ومعلوم أن الكتابة والقراءة وامحاء الأمية في أية أمة رهين بخروجها من عهد السذاجة والبساطة إلى عهد المدينة والحضارة. ثم إن هذه الأمية تجعل المرء منهم لا يعول على حافظته وذاكرته فيما يهيمه حفظه وذكره.....ولو كانت الكتابة شائعة فيهم لاعتمدوا على النقش بين السطور بدلا من الحفظ في الصدور.³²

فقد نشأ الرسول ﷺ فيأمة عربية اتصفت بالجهالة والأمية ، مصطلحان ذوا بعد في التكوين اللغوي، و قد أخذنا حظا وافرا من الدراسة لدى العرب والمستشرقين ، ومن بين من حاول تسليط الضوء وبإسهاب في هذين المصطلحين نجد جواد علي في الجزء الأول والثامن من مؤلفه المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، مستعرضا آراء القدامى والمحدثين في حقيقتهما ، ليصل إلى نتيجة مفادها أن لفظة جاهلية ليست من الجهل الذي هو ضد العلم ، إنما المراد منها السفه والحمق والغلظة والغرور ، وقد كانت تلك أبرز صفات المجتمع الجاهلي.³³

أما لفظ أمية فله معنى آخر غير المعنى المتداول المعروف وهو الجهل بالكتابة والقراءة ، إذ ذكر الفراء وهو من علماء العربية المعروفين ، أن الأميين هم العرب الذين لم يكن لهم كتاب ، ويراد بالكتاب ، التوراة والإنجيل ، ولذلك نعت اليهود والنصارى في القرآن بأهل الكتاب ، وهذا المعنى يناسب كل المناسبة لفظة الأميين الواردة في القرآن الكريم ، وتعني الوثنيين أي جماع قريش وبقية العرب ، ممن لم يكن من يهود وليس لهم كتاب. وهذا ما يلاحظ في قوله تعالى : (وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ الْأُمِّيِّينَ) سورة آل عمران/ 20 ، وقوله (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) سورة آل عمران/ 75 وقوله : (وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا

يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ الْأَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) سورة البقرة/78، وكذلك: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) سورة الجمعة/02.

فلا تؤدي معنى الأمية بمعنى الأمة الجاهلة بالقراءة والكتابة لعدم انسجام التفسير مع المعنى ، وإنما تؤدي معنى الوثنية ، أي أمة لم تؤمن بكتاب من الكتب السماوية، كما فسرت الأمي - بالضم - من لا يكتب أو من هو على خلقة الأمة لم يتعلم الكتاب ، وهو باق على جبلته ، وفي الحديث : إنا أمة أمية ، لا نكتب ولا نحسب ، أراد أنه على أصل ولادة أمهم ، لم يتعلموا الكتابة والحساب ، فهم على جبلتهم الأولى.³⁴

وبالعودة إلى شخص الرسول ﷺ - الذي خوطب في العديد من المرات وفي كثير من الآيات بلفظ الأمي - وإلى الحوار الأول بينه وبين الوحي ، نجد أن الحوار يحدد منذ البداية الوضع النسبي للذات المحمدية في الخطاب القرآني، فتوضع هذه الذات منذ الوحي الأول في مقام المخاطب المفرد، وسينزل الوحي في الواقع على ذات مخاطبة تؤديه واسطة عن الذات المتكلمة ، تستعمل هنا مباشرة اللغة الإلهية لتأمر بالقراءة أميا لا يتخيل نفسه قارئاً . والتباعد الرئيسي بين في الحوار بين الذات المتكلمة الأمية الحازمة ، والذات المخاطبة المضطربة المجفلة ، فهذا الإجفال يعكس طبيعياً لدى النبي- الذي يعرف أنه لا يعرف القراءة- الشعور والفكرة اللذين يعرفهما عن نفسه ، فإجابته السلبية الخاشعة - ولكنها القاطعة- هي النهاية الطبيعية لعملية نفسية تنبثق عن هذه الفكرة التي لا يدرك موضوعيتها تماما ، فكرة أميته.³⁵

إذ إن الدارس لحياة الرسول ﷺ قبل النبوة وبعدها ، قبل القرآن وبعده يجد جواباً قاطعاً ، إنه الوحي والنبوة وليس غيرهما ، رجل أمي جاوز الأربعين لم يعرف عنه خلالها أنه تكلم بشيء له علاقة بدين ولادرس ولا كتب ، فلم يتلق علماً ولم يقرأ كتاباً دينياً وغير ديني ، ثم إن البيئة بيئة أمية - ولكنها ذكية- لا تعلم عن النبوءات والرسالات شيئاً. وكونه لم يتلق علماً من أحد شيء مشهور، فمكة لم يكن بها أهل كتاب إلا ورقة بن نوفل والحداد. والحداد أعجمي، وكم يمكن أن تكون ثقافته العامة والدينية في زمن كانت الكتب الدينية فيه حكراً عند رؤساء الديانات فحسب، ولم تكن مترجمة. ثم جلوس الرسول عنده للأخذ منه شيء مبتوت من عدم وجوده ، وكذلك ورقة ، وليس هناك أي نص تاريخي يشير إلى غير هذا ، بل كل النصوص تؤكد على أن المعلم الوحيد للرسول ﷺ هو الوحي.

فرغم ما ذكر عن أميته، إلا أن قرآناً يتلى ودين يقوم ومفاهيم تغير بسر هذا القرآن، الذي يتحدى فيسكت المتحدون ، وهذا ما أشار إليه القرآن كدليل على النبوة لا يبقى معه ريب ، قال تعالى: (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبْتَلُونَ) سورة العنكبوت/48، وقوله: (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ) سورة النحل/103 ، وقوله: (وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِيُقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) سورة الأنعام/105 ، فدارس القرآن العظيم لا يمكن أن يتصور أن ما فيه صادر عن جهل بل يرى أنه لا بد صادر عن علم محيط ، وهنا سر المعجزة وكذلك قال الكافرون : تعلم محمد ودرس .

والنبيون عليهم الصلاة والسلام كانت معجزاتهم شاهدة على صدق الوحي الذي أنزل إليهم وبلغوه ، أما محمد ﷺ فمعجزته الرئيسية كانت في نفس الوحي، فالوحي نفسه فيه دليل على أنه من عند الله عز وجل ، إذ هو ذاته المعجزة ، ولذلك عندما كان المشركون يطلبون آية كانوا يلفتون إلى أن الآية بين أيديهم : (وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ .أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) سورة العنكبوت 51/50 .³⁶

وقوله تعالى: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِمَّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) سورة البقرة /23. ولم يذكر التاريخ أن أحدا قد أجاب على هذا التحدي، وبهذا يمكن أن نستخلص أنه قد ظل دون تعقيب، وأن إعجازه الأدبي قد أفحم فعلا عبقرية لغة ذلك العصر.³⁷ فالمعجزة باقية محسوسة يستطيع كل إنسان إن صدق أن يعرفها ويتقنها بعلم يقين.³⁸

معجزة حدد رسول الله ﷺ مهمته فيها بقوله : (إنما بعثت معلما) رواه أحمد ، والقرآن الكريم ذكر هذه المهمة الأساسية لرسول الله ﷺ بصراحة فقال: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) سورة الجمعة /02. إذ الظاهرة التي نجدها في تاريخ محمد ﷺ أن الرسول ﷺ بدأ في تشكيل أمة جديدة لها كل مقوماتها الفكرية والسلوكية والأخلاقية والتشريعية والدستورية واللسانية.³⁹

مقومات لسانية جعلت مجالسه صلى الله عليه وسلم حلقات علمية تعد الأولى التي عرفت في سلسلة التاريخ العربي كله، كما أنه أول من علم وأول من صدرت عنه الرسائل التي تشبه المؤلفات العلمية⁴⁰. وما كان له ذلك إلا بامتلاكه للسان فصيح وبلغ معجز .

3 التأديب الرباني في فصاحة وبلاغة الرسول ﷺ.

مما لا شك فيه أن لغة الرسول ﷺ هي لغة قومه قريش. لكن نجد بعض الباحثين من يرى أنه قد تخالفها في بعض الأحيان. لأنه ﷺ ترك لغة قومه وتكلم بلغة نموذجية يفهمها العرب جميعا وقد يحدث مجالسيه بلغاتهم بغية تبليغ الوحي. ومخالفة لغة قريش ليست هي الأصل بل التحدث بها كان عرضا، إذا أخرجت الأحاديث التي خاطب بها بعض الوفود و الكتب التي أرسلت إلى أهل اليمن، فإن باقي حديثه صلى الله عليه وسلم الذي لم تغيره الرواية يمثل لغة قومه⁴¹. وبين الأصل والعرض تتجلى الفصاحة والبلاغة النبوية في حديثه الشريف ذي التأديب الرباني.

فبعد كلام الله في إعجازه و بلاغته نجد كلامه ﷺ في إشراقه و ديباجته و جزالة ألفاظه و سمو معانيه و هدايته، فقد كان ﷺ أفصح الناس و أبلغهم و كان العرب إلى جانب ذلك مأخوذين بكل فصيح بليغ متنافسين في أجود المنظوم و المنثور⁴². و رغم كونه ﷺ أفصح العرب إلا أنه لا يتكلف القول ولا يقصد إلى تزيينه ، ولا يبغى

إليه وسيلة من وسائل الصنعة، ولا يجاوز به مقدار الإبلاغ في المعنى الذي يريده، ثم لا يعرض له في ذلك سقط ولا استكراه، ولا تستنزه الفجاءة ولا يبده أغراض الكلام من الأسلوب الرائع وعن النمط الغريب، بحيث لا يجد الناظر إلى كلامه طريقا يتصفح منه صاعدا أو منحدرا، ثم أنت لا تعرف له إلا المعاني التي هي إلهام النبوة ونتاج الحكمة وغاية العقل.⁴³

ومن بين من تفنن في وصف فصاحة الكريم المصطفى نجد الجاحظ في كتابه البيان والتبيين حين قال: هو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه وجل عن الصنعة، ونزه عن التكلف... استعمل المبسوط في موضع البسط، و المقصور في موضع القصر، وهجر الغريب والوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق عن ميراث حكمة ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشد بالتأييد، ويسر بالتوفيق، وهذا الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه و غشاه بالقبول، وجمع بين المهابة والحلاوة ولين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام وهو مع استغنائه عن إعادته وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة ولا زلت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم ولا أفحمه خطيب، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق ولا يطلب الفلج إلا بالحق ولا يستعين بالخلابة ولا يستعمل المؤاربة ولا يهمز ولا يلمز لا يبطن ولا يعجل ولا يسهل ولا ويحصر، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ولا أصدق لفظا، ولا أعدل وزنا ولا أجمل مذهبا ولا أكرم مطلبا ولا أحسن موقعا ولا أسهل مخرجا ولا أفصح عن معناه ولا أبين عن فحواه من كلامه صلى الله عليه وسلم"⁴⁴.

يقول أبو حامد الغزالي: كان ﷺ أفصح الناس منطقا وأحلام كلاما.... كان نزر الكلام سمح المقال إذا نطق ليس بمهزار وكان كلامه كخزرات نظمن، قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: كان لا يسرد الكلام كسردكم هذا كان كلامه نزرا وأنتم تنثرون الكلام نثرا، وقالوا: كان أوجز الناس كلاما وبذلك جاءه جبريل، وكان مع الإيجاز يجمع كل ما أراد وكان يتكلم بجوامع الكلم لا فضول ولا تقصير كأنه يتبع بعضا بين كلامه توقف، يحفظه سامعه ويعيه، وكان جهير الصوت أحسن الناس نغمة وكان طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة ولا يقول المنكر ولا يقول في الرضا والغضب إلا الحق، ويعرض عن من تكلم بغير جميل ويكني عما اضطره الكلام إليه مما يكره، وكان إذا سكت تكلم جلساؤه، ولا يتنازع عنده في الحديث، ويعظ بالجد والنصيحة⁴⁵.

أما منطق ﷺ فقد كان أنه ضليع الفم، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه ذلك أنه كان يستعمل جميع فمه إذا تكلم، لا يقتصر على تحريك الشفتين فحسب، ولقد كانت العرب تتمادح بسعة الفم وتذم لصغره، لأن السعة أدل على امتلاء الكلام وتحقيق الحروف و جهازة الأداء وإشباع ذلك في الجملة. ولأن طبيعة لغتهم ومخارج حروفها تقتضي هذا كله ولا تحسن في النطق إلا به ولا تبلغ تمامها إلا أن يبلغ فيها، وهو يعد ميزتها الظاهرة في أفصح أساليبها، إذ كانت الفصاحة راحة إلى حسن الملائمة بين الحروف باعتبار أصواتها ومخارجها حتى تستوي في تأليفها على مذاهب الإيقاع اللغوي.... كان هذا أساس منطق القوم وعتاد لغتهم ومن استفاد منهم اتسق له الفصيحة البينة.

هذا وقد وصف صوته ﷺ بحسن الصوت وهو التمام والحلية ، فهذه اللغة تجمل بذلك ما لم تجمل به سائر اللغات، لما فيها من معاني الأوضاع الصوتية الموسيقية في خفة الوزن وصحة الاعتدال وتمام التساوي ...، قالت عائشة في وصف الرسول ﷺ: "أنه كان يتكلم بكلام بين فصل، يحفظه من جلس إليه"، وفي رواية أخرى عنها أيضا "أن الرسول ﷺ يحدث حديثا لو عدده العاد لأحصاه"، وهو المنطق الذي يمر بالفكر قبل أن ينطق به الفم ، وأن العقل فيه من وراء اللسان ، فهو غالب عليه مصرف له ، حتى لا يعتريه لبس ولا يتخونهنقص ، وليس إحكام الأداء وروعة الفصاحة وعدوبة المنطق وسلاسة النظم إلا صفات كانت فيه ﷺ ولها أسبابها الطبيعية، فلم يتكلف لها عملا ولا ارتاض من أجلها رياضة ، بل خلق مستكمل الأداء فيها، ونشأ موفر الأسباب عليها، فكانت صورة تامة من الطبيعة العربية.⁴⁶

يقول السيوطي: "أفصح خلق الله على الإطلاق سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ وذلك لقوله: أنا أفصح العرب"، وروي أيضا قوله "أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أني من قريش"، وتقدم حديثاً عن عمر قال: "يا رسول الله مالك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا"، وقال الخطابي: "أعلم أن الله لما وضع رسوله ﷺ موضع البلاغ من وحيه ونصبه منصب البيان لديه ، اختار له من اللغات أعربها، ومن الألسنة أفصحها وأبينها ثم أمره بجوامع الكلام"⁴⁷.

واجتماع الكلم مع قلة ألفاظه على اتساع معناه وإحكام أسلوبه في غير تعقيد ولا تكلف مع إبانة المعنى واستغراق أجزائه ، وأن يكون ذلك عادة وخلقا يجري عليه الكلام في معنى معنى وفي باب باب ، شيء لم يعرف في هذه اللغة لغيره ﷺ....، وهذا لا ينفي أنه ﷺ لم يكن يطيل الكلام إذا رأى وجهها للإطالة، فقد كان ربما فعل ذلك إن لم يكن منه بدا، بيد أن الإقلال كان الأعم الأغلب حتى أنه كان يأمر بقصر الخطبة.⁴⁸

أي أنه ﷺ لم يكن يحب التشديق والإكثار، فعن جابر بن عبد الله ﷺ "أن رسول الله ﷺ قال: أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، وأن أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفهبون"، رواه الترمذي. وقال حديث حسن⁴⁹. كما لم يكن صلوات الله عليه يحب المتنتعنين، فعن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: (هلك المتنطعون) قالها ثلاثا،⁵⁰ رواه مسلم.

كما لم تكن فصاحته ﷺ قاصرة على لغة قومه فحسب بل كان عالما بأحوال اللغات واشتراكها وانفرادها بينهم ، وتخصص القبائل بأوضاع وصيغ مقصورة لا يساهمهم فيها غيرهم من العرب إلا من خالطهم أو دنا منهم دنو المآخذ ، فتجده صلوات الله عليه يخاطب كل قوم بلحنهم وعلى مذهبهم ثم لا يكون إلا أفصحهم خطابا وأسردهم لفظا وأبينهم عبارة ، ولم يعرف ذلك لغيره من العرب ولو عرف لكانوا نقلوه وتحدثوا به و استفاض فيهم⁵¹. فهذا علي كرم الله وجهه يقول للرسول ﷺ وقد سمعه يخاطب وفد بني فهد: يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره ، فقال ﷺ: (أدبني ربي فأحسن تأديبي).⁵²

و العجيب أن ينفرد النبي ﷺ بمعرفة هذا الغريب من ألسنة العرب دون قومه ، و غير قومه ممن ليس ذلك في لسانهم غير تعليم ولا تلقين ولا رواية، وأن يكون قومه من قريش قد ضربوا في الأرض للتجارة

و خالطوا العرب وسمعوا مناطقهم في أرضهم وحين يتوافدون إليهم في موسم الحج ، وهم مع ذلك لا يعلمون من هذا الغريب بعض ما يعلمه.⁵³ و من نماذج غريبه من لغات القبائل حديثه المشهور الذي أبدل " ال " ب " أم " كما يصنع بعض العرب من حمير إذا قال : " ليس من امبرامصيام في امسفر " أي " ليس من البر الصيام في السفر".⁵⁴

وكذلك كتابه إلى همدان ومنه : " إن لكم فراعها ووهاطها و عزازها يأكلون علافها ويرعون عفاءها ، لنا من دفعهم وصرامهم ما سلموا . ولهم من الصدقة الثلب والناب والفيصل.... " شرح الكتاب: الفراع: مجاري المياه إلى الشعب، و الوهاط و الوهاد بمعنى واحد : وهي الأرض المنخفضة، والعزاز: الأرض الصلبة .. و الصرام: الابل والغنم ، الثلب : البعير الذي تكسرت أنيابه، و الناب: الناقة الهرمة: الفيصل : ولد الناقة إذا فصل عن أمه . وهذه اللغات الغريبة التي يجمعها ﷺ دون قومه ، ثم لا تجري في منطقتها مع أهلها خاصة ، ولا تندرج في كلامه مع غيره أو تغلب عليه أو تنقص من فصاحته أو تضعف أسلوبه كما هو الشأن في أهل الغريب من هذه اللغة⁵⁵ .

أما بلاغته ﷺ ، فقد كانت بلاغة إنسانية سجدت الأفكار لآياتها ، وحسرت العقول دون غايتها ، لم تصنع وهي من الأحكام كأنما مصنوعة ولم يتكلف لها وهي على السهولة بعيدة ممنوعة. والناظر في كلام النبي ﷺ على جهة الصناعتين اللغوية والبيانية رأيت في الأولى مسدد اللفظ محكم الوضع جزل التركيب متناسب الأجزاء في تأليف الكلمات ، فخم الجملة واضح الصلة بين اللفظ ومعناه في التأليف والنسق ، ثم لا ترى فيه حرفا مضطربا ، ولا لفظا مستدعاة لمعناها أو مستكرهه عليه ، ولا كلمة غير ما أتم منها أداء للمعنى وتأتيا لسره في الاستعمال ، ورأيت في الثانية حسن المعرض بين الجملة واضح التفضيل ، ظاهر الحدود ، جيد الرصف ، متمكن المعنى ، واسع الحيلة في تصريفه بديع الإشارة غريب اللمحة ، ناصح البيان ، ثم لا ترى فيه إحالة ولا استكراها ، ولا ترى اضطرابا ولا استعانة من عجز ، ولا توسعا من ضيق ولا ضعفا في وجه من الوجوه.⁵⁶

وفي أخبار الرسول ﷺ ما يدل على أنه كان يعني أشد العناية بتخيل لفظه ، فقد أثر عنه أنه كان يقول : " لا يقولن أحدكم خبثت نفسي ، ولكن ليقل لقست نفسي ، كراهية أن يضيف المسلم الخبث إلى نفسه " ⁵⁷

فالهعز وجل قد خصه بالإيجاز وقلة عدد اللفظ مع كثرة المعاني كقوله ﷺ " نصرت بالصبا وأعطيت جوامع الكلم".⁵⁸ وجاءت جل جوامع كلمه على شاكلة الأمثال ، والأمثال من حكمة العرب في الجاهلية والإسلام ، و بها كانت تعارض كلامها فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في النطق بكناية بغير تصريح ، فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال : إيجاز اللفظ ، إصابة المعنى ، وحسن التشبيه. وللرسول أمثال كثيرة ، فقد ذكر أن عمرو بن العاص حفظ عن النبي ﷺ ألف مثل .⁵⁹

ويذكر الجاحظ طائفة من أقواله التي دارت بين الناس دوران الأمثال والتي تعد ذخيرة أدبية رائعة من نحو قوله : " مات حتف أنفه " ، " لا تنتطح فيه عتران " ، " الآن حمي الوطيس " ، " هدنة على دخن " ، " إياكم وخضراء الدمن " ⁶⁰ . " إن من البيان لسحرا " ، " إن مما ينبت الربيع لما يقتل حبطا أو يلم " ، " من أكثر كلامه أكثر سقطه " ، " أنصر أخاك ظالما أو مظلوما " ⁶¹ ، ومن ضروب بيانه الرائعة : " حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم

بالصدقة"، "أوصاني ربي بتسع: أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية وبالعدل في الرضا والغضب وبالقصد في الغنى وفي الفقر، وأن أعفو عن الذي ظلمني، وأن أعطي من حرمني وأن أصل من قطعني وأن يكون صمتي فكراً ونطقي ذكراً ونظري عبراً".⁶² فبلاغته ﷺ وقوله في صفة الحرب يوم حنين "الآن حيي الوطيس" لأدل على ما سلف ذكره، فالوطيس هو التنور مجتمع النار والوقود، فمنه ما كانت صفة الحرب، وهذه الكلمة بكل ما يقال في صفتها وكأنما هي نار مشوبة من البلاغة تأكل الكلام أكلاً، وكأنما تمثل لك دماء نارية أو ناراً حموية⁶³، وقوله صلى الله عليه وسلم في حديث الفتنة: "هدنة على دخن" هذه العبارة لا يعدلها كلام في معناها، فإن فيها لونا من التصوير البياني لو أذيت له اللغة كلها ما وقت به، وذلك أن الصلح إنما يكون موادةً ولينا، وانصرافاً عن الحرب وكفاً عن الأذى، وهذه كلها من عواطف القلوب الرحيمة، فإن بني الصلح عن فساد، وكان لعل من العلل غلب ذلك عن القلوب فأفسدها حتى لا يسترح غيره من أفعاله، كما يغلب الدخن على الطعام فلا يجد أكله إلا رائحة الدخان، والطعام بعد ذلك مشبوب مفسد.

فهذا التصوير لمعنى الفساد الذي تنطوي عليه القلوب الواغرة الممتلئة غيظاً وحقداً، ثم لون آخر في صفة هذا المعنى وهو اللون المظلم الذي تنصبغ به النية السوداء وقد أظهرته في تصوير الكلام لفظة الدخن، ثم معنى ثالث وهو النكتة التي من أجلها اختيرت هذه اللفظة بعينها وكانت سر البيان في العبارة كلها، وبها فضلت كل عبارة تكون في هذا المعنى، وذلك أن الصلح لا يكون إلا أن تنطفأ الحرب، فهذه حرب قد طفأت نارها بما سوف يكون فيها ناراً أخرى، كما يلقي الحطب الرطب على نار تخبو له قليلاً، ثم يستوقد فيستعر فإذا هي نار تلتظي، وما كان فوقه الدخان فإن النار ولا جرم من تحته، وهذا كله تصوير لدقائق المعنى كما ترى، حتى ليس في الهدنة التي تلك صفتها معنى من المعاني يمكن أن يتصورها العقل، إلا وجدت اللون البياني بصورة في تلك اللفظة لفظة الدخن.⁶⁴ وقوله: هذا يوم له ما بعده⁶⁵، يريد أنه أساس تاريخي لما سينبني عليه فليضعوا كل همهم فيه، أو هو يملك الأيام الآتية فإذا أحرزه أحرزها معه وإن خسروه ذهب بذهابه.

وهذا نزر ضئيل من أمثال كثيرة ابتدعتها أفصح العرب صلى الله عليه وسلم في هذه اللغة ابتداءً، لم تسمع من أحد من قبله ولا شاركه أحد بعد، وكل كلمة منها لا يعدها شيء في معناها، وهذا الضرب من الكلام الجامع الذي انفرد به بليغ البلغاء⁶⁶، ضرب عناء أكثر من ضيفي حكيم العرب في تعريف البلاغة، "إذ عرفها بأنها دنو المأخذ وقرع الحجة، وقليل من كثير"، وهي صفة متى أصابها البليغ وأحكمها وضع عن نفسه في البلاغة مؤنة ما سواها ولكن إن أصابها وأحكمها.⁶⁷ كما كان رسول الله ﷺ يراعي مقتضى الحال في رسائله، فإذا كتب إلى الفرس سهل اللفظ وإذا كتب إلى قوم من العرب فخم وأجزل.⁶⁸

ونسق البلاغة النبوية إنما هو في أكثر الحد الإنساني من الإعجاز القرآني والتأديب الرباني، يعلو كلام الناس من جهة وينزل عن القرآن من جهة أخرى.⁶⁹ هذا وقد كان هم الرسول ﷺ أن يستوعب الناس هذا القرآن حفظاً وفهماً وتطبيقاً إذ على قدر ما يستوعبه أفراد الأمة على قدر ما ترتفع أنفسها ويسمو تفكيرها وتنتفتح آفاق الحياة أمامها، وبذلك كان الرسول ﷺ معلم الأمة ومربيها الأول.⁷⁰

إذ يظهر أثر تعليمه وتربيته للعيان في اللغة والأدب، والبداية بالقرآن الكريم الذي ساعد على انتشار العربية وحفظها وبقائها. فكان له بالغ الأثر في توسيع المادة بما أشاع من ألفاظ دينية وفقهية لم تكن تستخدم من قبل هذا الاستخدام الخاص،⁷¹ حيث أحدث الرسول ﷺ أسماء ومصطلحات شرعية مما لم يرد في القرآن الكريم، ومنه ألفاظ كان العرب أنفسهم يسألونه عنها ويعجبون لانفرادها بها وهم عرب مثله.⁷²

كما فتح الحديث النبوي باب الكتابة التاريخية وهياً لظهور كتب الطبقات في كل فن، وهذا غير ما نشأ عنه من علوم الحديث وغير مشاركته في علوم التفسير والفقه، مما يبعث على نهضة علمية رائعة. فحديثه كنز ثمين استمد المتأدبون من هذا الكنز في رسائلهم وأشعارهم ما أضاف إليها - على مر العصور - رونقا وطلاوة وما يزال شأنهم إلى اليوم.⁷³

وخير ما يذكر في وصف بيان لغة الرسول ﷺ أنها مبنية - كما أجملها الرافعي - على ثلاثة هي:

***الخلوص:** لم يكن ولن يكون في من بعده أبد الدهر من ينفذ في اللغة وأسرارها وضعا وتركيبا ويستعيد اللفظ الحر ويحيط بالعتيق من الكلام ويبلغ من ذلك إلى الصميم على ما كان من شأنه ﷺ.

***القصد والايجاز:** امتازت به البلاغة النبوية حتى كان الكلام لا يعدو فيها حركة النفس، وكأن الجملة تخلق في منطقته ﷺ خلقا سويا، أو هي تنزع من نفسه انتزاعا.

***الاستيفاء:** كلامه مبسوط المعنى بأجزائه ليس فيه خداج ولا اضطراب وقلما يستحکم لامرئ إلا بتأييد من الله وتمكين من اليقين، فما هو اكتساب ولا تمرين إنما هو إعطاء وإيتاء " أوتيت جوامع الكلم " " أدبني ربي فأحسن تأديبي " ⁷⁴.

الخاتمة: من خلال ما تم تناوله من انتقالات لغوية للعربية الفصحى من لغة قرشية نموذجية جعلها العرب مقياسا للفصاحة، إلى تحد لغوي للغة العرب نازل بلسانها متفوق عليها بيانا وإعجازا. بين هذا وتلك انتقال لذات شريفة نشأت في الأولى وأدها الثاني، لتصبح لغة تلك الذات - التي لم تعرف القراءة ولا الكتابة قبلا - لغة بيانية معجزة أوتيت جوامع الكلم فتملكت الفصاحة والبلاغة دون منازع حتى يرث الله الأرض وما عليها.

هوامش وإحالات المقال

- ¹ ينظر: لغة القرآن ولغة قريش، الموقع الإلكتروني <http://www.kamazan.com>. يوم الزيارة: 2014/07/28.
- ² ينظر: رمضان عبد التواب: فصول في فقه العربية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط6، 1999، ص 78-80.
- ³ شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، ط9، دت، ص 11.
- ⁴ رمضان عبد التواب: فصول في فقه العربية، ص 80.
- ⁵ ينظر: صبيحي صالح، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، بيروت، ط2009، ص 3، 115.
- ⁶ ينظر: مختار الغوث، لغة قريش، دار المعراج الدولية للنشر، السعودية، ط1، 1997، ص 275-278.
- ⁷ ابن خلدون: المقدمة، تح: عبد الله محمد الدرويش، دار البلخي، دمشق، ط1، 2004، ص 358.
- ⁸ ينظر: مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر، ط1، دت، ج 1، ص 122.
- ⁹ ينظر: لغة القرآن ولغة قريش، الموقع الإلكتروني <http://www.kamazan.com>
- ¹⁰ ينظر: مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، دار الوعي، الجزائر، ط1، 2013، ص 190، 191.
- ¹¹ ينظر: سعيد حوى: الرسول ﷺ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط7، 2005، ص 252-254.
- ¹² مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص 189.
- ¹³ ينظر: سعيد حوى: الرسول ﷺ، ص 255، 256.
- ¹⁴ المرجع نفسه، ص 259.
- ¹⁵ رمضان عبد التواب، فصول في فقه العربية، ص 81، 82.
- ¹⁶ مختار الغوث: لغة قريش، ص 279.
- ¹⁷ عبدالرحمن جلال الدين السيوطي: المزهري في علوم اللغة وأنواعها، شرح محمد أحمد جاد المولى بك وآخرون، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط3، دت، ج 1، ص 210.
- ¹⁸ محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، تح، فواز أحمد زمري، دار الكتاب العربي، ط1، 1995، ج 1، ص 124.
- ¹⁹ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، منشورات جامعة بغداد، ط2، 1993، ج 8، ص 640.
- ²⁰ مختار الغوث: لغة قريش، 278، 279.
- ²¹ المرجع نفسه، ص 281.
- ²² جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 8، ص 608.
- ²³ مختار غوث، لغة قريش، ص 279-281.
- ²⁴ بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تح: أبي الفضل الدمياطي، دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، دط، 2006، ص 202.
- ²⁵ أحمد محمد معتوق: الحصيلة اللغوية، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1996، ص 190.
- ²⁶ مختار غوث: لغة قريش، ص 281.
- ²⁷ الرافعي: تاريخ آداب العرب ج 1، ص 82.
- ²⁸ الرافعي: تاريخ آداب العرب ج 1، ص 112.
- ²⁹ ينظر: عبدالرحمن جلال الدين السيوطي: المزهري في علوم اللغة وأنواعها، ص 210.
- ³⁰ مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2007، ص 219.
- ³¹ مالك ابن نبي: الظاهرة القرآنية، ص 125، 126.
- ³² ينظر: محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج 1، ص 237.

- ³³ ينظر: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 1، ص 136.
- ³⁴ المرجع نفسه، ج 8، ص 92-95.
- ³⁵ ينظر: مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص 162.
- ³⁶ سعيد حوى: الرسول ﷺ، ص 256، 257.
- ³⁷ مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص 189.
- ³⁸ سعيد حوى الرسول ﷺ، ص 251.
- ³⁹ المرجع نفسه، ص 172.
- ⁴⁰ مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ج 1، ص 235.
- ⁴¹ مختار العوث: لغة قريش، ص 25.
- ⁴² محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج 1، ص 240.
- ⁴³ مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، ج 2، ص 224، 223.
- ⁴⁴ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، تح، عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 7، 1997، ج 2، ص 17، 18.
- ⁴⁵ أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ضبط و تخريج محمد محمد ثامر، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط 1، 2004، ج 2، ص 213-215.
- ⁴⁶ مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، ج 2، ص 234، 235.
- ⁴⁷ عبدالرحمن جلال الدين السيوطي: المزهري في علوم اللغة وأنواعها، ج 1، ص 209.
- ⁴⁸ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، ص 234.
- ⁴⁹ زكريا يحيى بن شرف النووي، رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، شرح الامام صالح بن عثيمين، دار الكتاب الحديث، الجزائر، 2011، باب كراهة التقيير في الكلام، ص 541.
- ⁵⁰ أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسبوري، صحيح مسلم، ترقيم وترتيب محمد فؤاد عبد الباقي، دار التقوى للطباعة و النشر، مصر، ط 2012، 1، كتاب العلم، ص 803.
- ⁵¹ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، ص 218.
- ⁵² السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبديع، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ط 1، ص 7.
- ⁵³ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، ص 247.
- ⁵⁴ شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، ط 11، ص 41.
- ⁵⁵ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، ص 240-248.
- ⁵⁶ مصطفى صادق الرافعي وحى القلم، راجعه درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت، ج 3، ص 11-08.
- ⁵⁷ شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص 14.
- ⁵⁸ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج 2، ص 28.
- ⁵⁹ - جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 8، ص 356-358.
- ⁶⁰ - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج 2، ص 17.
- ⁶¹ - جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 8، ص 358.
- ⁶² - شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص 39.
- ⁶³ - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج 2، ص 15، 16.
- ⁶⁴ - مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، ص 258.

⁶⁵ - أبو محمد عبد الملك بن هشام ، السيرة النبوية ، دار الكتاب الحديث ، لبنان ، 2011 ، ص 588.

⁶⁶ - ينظر: مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن و البلاغة النبوية ، ص 258.

⁶⁷ - عبد المتعال الصعيدي : البلاغة العالية، مكتبة الآداب ، مصر، ط2، 1991، ص 05.

⁶⁸ - السيد أحمد الهاشمي ، جواهر البلاغة ، ص 07.

⁶⁹ - مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن و البلاغة النبوية ، ص 265.

⁷⁰ - ينظر سعيد حوى: الرسول ﷺ ، ص 124.

⁷¹ - شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، ص 40.

⁷² - مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، ص 247.

⁷³ - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي ، ص 41، 40.

⁷⁴ - ينظر : مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، ص 162 .

المصادر والمراجع :

1. ابن خلدون : المقدمة ، تح : عبد الله محمد الدرويش ، دار البلخي ، دمشق ، ط1، 2004.
2. أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسبوري، صحيح مسلم، ترقيم وترتيب محمد فؤاد عبد الباقي ، دار التقوى للطباعة و النشر ، مصر ، ط 2012، 1.
3. أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين ، ضبط و تخريج محمد محمد ثامر ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ط1، 2004، ج 2.
4. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : البيان و التبئين ، تح ، عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط 7، 1997، ج 2.
5. أبو محمد عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، دار الكتاب الحديث، لبنان، 2011.
6. أحمد محمد معتوق: الحصيلة اللغوية، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، 1996.
7. بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تح : أبي الفضل الدمياطي ، دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة ، دط، 2006.
8. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، منشورات جامعة بغداد، العراق، ط1993، 2، ج 8.
9. رمضان عبد التواب: فصول في فقه العربية، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط 6، 1999.
10. زكريا يحيى بن شرف النووي، رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ، شرح الامام صالح بن عثيمين ، دار الكتاب الحديث ، الجزائر، 2011.
11. سعيد حوى: الرسول ﷺ ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة، ط 7 ، 2005.
12. السيد أحمد الهاشمي ، جواهر البلاغة في المعاني والبديع ، المكتبة العصرية ، صيدا بيروت، دط، دت.
13. شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 9، دت.
14. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي ، دار المعارف، القاهرة ، ط 11، دت ، ص 41.
15. صبحي صالح، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، بيروت، ط 3، 2009.
16. عبد المتعال الصعيدي : البلاغة العالية، مكتبة الآداب ، مصر، ط 2، 1991.
17. عبد الرحمن جلال الدين السيوطي : المزهرة في علوم اللغة وأنواعها ، شرح محمد أحمد جاد المولى بك وآخرون، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ط 3، دت ج 1.
18. لغة القرآن و لغة قریش، الموقع الإلكتروني <http://www.kamazan.com> . يوم الزيارة : 2014/07/28.
19. مالك بن نبي ، الظاهرة القرآنية ، دار الوعي ، الجزائر ، ط 1، 2013.

20. محمد عبد العظيم الزرقاني ، مناهل العرفان في علوم القرآن ،تح، فواز أحمد زمري ، دار الكتاب العربي، ط1، 1995، ج1.
21. مختار الغوث، لغة قريش، دار المعراج الدولية للنشر، السعودية، ط1، 1997.
22. مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، مكتبة الإيمان ، المنصورة ، مصر ، ط1، دت، ج 1.
23. مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة ، ط1 ، 2007.
24. مصطفى صادق الرافعي: وحي القلم، راجعه درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت، ج3.